تحولات القراءة من النص إلى القارئ

محمّد محمّدي[1]

تمهيد:

تعتبر القراءة فعلا خلاقا يقود إلى الغوص في ثنايا النص، قصد تمثّل مكنوناته والوصول لمقصدياته؛ ومن هنا فقد حظيت باهتمام النقاد الغرب والعرب على السواء، وقد مرّ الحدث القرائي في مسيرته ومراحل تشكله بعدة أطوار ارتأت هذه الورقة التعرض إليها وبسطها، مع التركيز على حضور القارئ في المناهج القرائية السابقة (السياقية والنسقية) وكيف استقر الفكر النقدي على إعادة القارئ لهرم العملية القرائية، وليكن الاستشراف ببسط مفهوم القراءة.

حول القراءة:

القراءة في اللغة من **قرأ**[2] قرءً وقِراءةً وقُرآناً: إذا تلاه، وقرأت الشيء قرآناً إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض، وقوله تعالى: ﴿إنَّ علينا جَمْعه وقُرآنه﴾، أي جَمْعَه وقِراءَته، ﴿فإذا قرَأْنَاهُ فاتَّبِــعْ قُرْآنَهُ﴾، أي قِراءَتَهُ. ومعنى قرَأْتُ القُرآن: لَفَظْت به مَجْمُوعاً أي ألقيته.

أمّا القراءة من منظور الحقل النقدي، فقد« مثّل بارت العلاقة بين الكاتب والنّص والقارئ بعلاقة إيروسية (Erotic) حين يتكلّم إلى جسد الكاتب، وهو أشدّ ما فيه واقعية وحميمية يقدم إلى حس القارئ الذي يستجيب هو الآخر استجابة حميمية، وبذلك يتحول القارئ إلى إنسانٍ مشدّود بالمتعة أو اللذة وهما مصطلحان مختلفان في اعتقاده»[3].

---

1 أستاذ مساعد جامعة سعيدة

2 ابن منظور، لسان العرب، نسّقه وعلق ووضع فهارسه، علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، سنة1988، مادة " قرأ "، ج 1، ص ص 128، 130.

3 مولاي على بوخاتم، مصطلحات النقد العربي السيماءوي الإشكالية والأصول والامتداد 2004/2003 - دراسة - منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 2.

وهو يقول بتعدّد القراءات وذلك بتوالد الكتابات[1]، وهي عملية مهمة وخطرة في الوقت نفسه، فالقراءة في نظر بارت «عملية تقرير مصيري بالنسبة للنصّ»[2].

أمَّا الباحث الألماني فولفغانغ إيزر Wolfgang Iser فيعدّ القراءة «عملية تدخّل في ديناميكية البحث عن مدلول من أجل نصّية لا يمكن أن توجد من غير البحث المستمر للقارئ أي إذابة نظرية للنص، هي نظرية القراءة»[3] وهكذا، تتحدّد عملية القراءة لدى إيزر كتفاعل بين النّص والقارئ، وتغدو عملية الكتابة حدث، وكلاهما فعلان يتطلبان شخصين نشيطين بشكل مختلف هما المؤلف والقارئ.

ومن خلال هذا التحديد المفهومي لبعض المدارس الأوروبية في القراءة والتلقي، تجمع الآراء على أن القراءة ليست عملية سكونية سلبية مغلقة، بل هي عملية دينامية فعالية، تشهد حركية، وقابلية للتوالد والتوهج.

أمّا القراءة في الفكر العربي فالمصطلح عانى من اختلاف مفهومي كغيره من المصطلحات ضمن أزمة اضطراب المصطلح فنجد في حقل السيميائيات «القراءة وقراءة القراءة لدى عبد الملك مرتاض، ثمَّ نقد النّقد لدى سامي سويدان في ترجمته لعمل تودوروف»[4]. وبذلك يتحول فعل القراءة إلى وجود فكري، وممارسة داخل وجود النّـــص، وهي غير مستقلة عنه.

وقد اعتبر عبد السلام المسدي أنّ النّص الجيد أساسه إشارة القارئ، فلا نص عنده بلا قارئ، ولا خطاب بلا سامع، وعليه فـــ«القراءة الإبداعية (هي) ممَّا يصيّر النقد إنشاءاً والتّشريح بناءاً»[5].

وقد عدّ بعض الباحثين عملية قراءة النصوص في النقد العربي حتّى الستينيات ظل يشوبها التفسير أو الشرح والتعليق وإبداء الرأي

---

1 رولان بارث، الدرجة صفر للكتابة، ترجمة محمد برادة، الترجمة المغربية للناشرين المتّحدين، المغرب، ط3، 1985، ص 102.

2 عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير قراءة نقدية لنموذج لساني، النادي الأدبي الثقافي، جدة. السعودية، ط1، ص 75.

3 لطيفة إبراهيم بدهم، اتجاهات تلقي الشعر في النقد الأدبي المعاصر، مجلة علامات ج 35 مج 9 مارس 2000، ص 262.

4 مولاي على بوخاتم، المرجع السابق، ص 2.

5 عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1984، ص 21.

المعلل بالشواهد لأنَّ معظم النقاد كانوا يقوّمون اللغة بالشروحات والتعبيرات، فيدرون معناها والعلاقات التي تفكها.

بينما نجد الباحث أحمد يوسف يجعل من القراءة فعلٌ مرتبط بالنظرة الفلسفية التأمليّة؛ ودرجات القراءة تتوقف على درجة السؤال[1]، فقد اعتبر القراءة تساؤلاً أكثر ممَّا هي جواب، ونظر إلى النّص على أنّه منطوٍ على معرفة مكثفة، يصل القارئ إلى فهم كنهها عبر مطيّة التساؤل.

وضمن الإطار نفسه يذهب عبد الله الغذامي إلى أنّ «القراءة علميّــة دخول إلى السّياق، وهي محاولة تصنيف النّص في سياق يتمثّله مع أمثاله من النّصوص»[2]. فهو يجعل من قراءة النص قراءة للواقع، لكن بطريقة تحويلية يصير الواقع معها لغة تجعل القارئ يحسن به على أنه أثر يبحث عنه من خلال متغيرات. وهي تفاعل بين فعل القول وفعل التلقي والتأويل، وخضوع المعنى لنيّة المؤلف، أمَّا الدّلالة فهي ما يفهم القارئ من النّص.

أمَّا الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض فقد خصّ مصطلح القراءة بكتابة واسعة وثرية ضمن مؤلفه (شعرية القصيدة، قصيدة القراءة) وبعض المقالات، مثيراً مصطلحات بعضها يقترب من التحديات التراثية وأخرى عن طرائق الإحياء والابتداع. وعليه، طرح مفاهيم مثــل: القراءة والتأويل والتعليق والنقد والشرح والتحليل، على أنّ مفهوم التحليــل: «ينصرف إلى حلّ اللّفظ عن اللفظ، وتفكيك عناصر النسيج الأسلوبي إلى أدنى عناصرها لإقامة بناء أدبي جديد قائم على إجراء محدّد»[3] وهي جهود تبرز هاجس التأصيل النقدي الذي أرّق كاهل عبد المالك مرتاض، وغيره من المنظّرين العرب.

كانت هذه إضاءة بسيطة لمصطلح القراءة وتموضعه بين الفكر النّقدي الغربي والعربي.

---

1 يُنظر: مولاي على بوخاتم، المرجع السابق، ص 4.

2 عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، مرجع سابق، ص 79.

3 عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة، قصيدة القراءة تحليل مركب لقصيدة اشجان يمانية، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص 201.

تحولات القراءة من النص إلى القارئ:

أصل الآن للحديث عن أهم التحولات التي مرّت بها عملية القراءة؛ وكيف انتقل الاهتمام من النّص إلى القارئ ؟

بدايةً يجب أن أؤكد على أنّ نظرية استجابة القارئ (التلقي) لم تنشأ من عدم بل كانت لها جذور في التراثين العربي والغربي وإن كانت تعتبر ابنة مدللة للنقد الغربي مدرسة كونستانس الألمانية تحديداً. فالنظرية قد قلبت أعراف النقد واستدعت عنصراً غُيِّب لفترة طويلة ألا وهو القارئ؛ هذا ما يكاد يجمع عليه الكثير من النّقاد. غير أنّ الواقع يثبت – إلى حدّ ما- عكس ذلك حيث أنّ التنظيرات النسقية أولت – ولو بشكل ضمني – الاهتمام بالقارئ. وسأسعى من خلال هذا العنصر إلى تبيُّن أهم المحطات التي مرّت بها القراءة في المناهج النقدية النسقية وصولاً إلى نظرية جمالية التلقي.

كان اهتمام الدراسات النقدية منصباً على مفهوم "المؤلف" زمناً طويلاً حتى اعتبر مركز العملية الإبداعية وهو الموجّه الرئيسي لعملية الفهم والتأويل، ونتيجة لذلك احتلّ حصة الأسد في مقاربات وتنظيرات جعلت منه منطلق عملية القراءة، فالتقت المناهج التاريخية والنفسية والاجتماعية والثقافية، والدراسات البيوغرافية لتسعى إلى ترسيخ ما يسمّى بـــ" سلطة المؤلّف " في الدراسات الأدبية، ولعلّ ذلك مبالغة وإفراط في التعصُّب له.

وكرد فعل طبيعي ظهرت مفاهيم أخرى تطالب بتوسيع النظر في أفق العملية الإبداعية والنّقدية محاولة كسر هذه المسلّمة «فطلب النّقد الجديد في فرنسا والبنيوي عامة بموت المؤلّف والاهتمام بمفهوم آخر، وهو "النّص" وبـــ "الكتابة"، لأنّ المؤلّف في نظر هذا التّصوُّر يُغيِّب المادة الأساسية للأدب، وهي الكتابة أو النّص»[1].

وهكذا احتلت سلطة النّص والكتابة سلم الأولويات في العملية القرائية، وأُبعد المؤلّف ليتم التركيز على النّص، مما استدعى إلى ظهور افتراضات جديدة حول القراءة وعلاقتها بالكتابة.

سيكون الحديث عن بداية الاهتمام بالمرحلة النصّانية، من خلال النقد الألسني Critique Linguistique.

---

1 أحمد بوحسن، نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث، دراسة ضمن "نظرية التلقي – إشكالات وتطبيقات –"، تأليف مجموعة من الباحثين، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24، 1993، ص 16.

فالدراسة الألسنية هي دراسة لـــ« اللغة في مظهرها الأدائي ومظهرها الإبلاغي وأخيـــرا في مظهرها التواصلي»[1]. كذلك النقد الألسني دراسة للنص الأدبي بوصفه لغة خاصة.

ورغم اختلافات الباحثين حول تفريعات المنهج الألسني، إلا أنّه يمكننا الاتّفاق أنّه يحوي عـــدّة تفرّعات هي:

البنيوية Structuralisme.

السيميائية Semiotique.

الأسلوبية Stylistique.

التفكيكية* Déconstruction.

ظهر **المنهج البنيوي** في أوائل القرن19، هو جهاز مفاهيمي تشكل فيه البنية مفهوما أساسيا، وهو يسعى إلى اكتشاف أدبية الأدب من خلال القوانين الداخلية للغة من أجل الوقوف على جماليتها الفنية. ولا يعير انتباها للظروف الخارجية ولا للحالة النفسية للمبدع.

قامت الدراسات البنيويّـــة على منهج في القراءة يرتكز على البعد السيميولوجـــي، الذي يعتبر النّص ينطوي على أسرار عديدة تستدعي الفك بناءاً على ثنائية الدّال والمدلول. فالدّال الذي قد يكون صورة صوتية أو خطية - في حالة الكتابة – يمثّل الحضور في النّص، بينما المدلول الذي هو متصور ذهني يمثل الغياب.

فالمقاربة البنيوية حول مسألة القارئ تتمثل في أن يقوم القارئ بالاستجابة لشفرات النّص ومحاولة فكّها، وبذلك تكون المقاربة القرائية أو التلقي في العملية النّقدية محاولة منظّمة لاكتشاف عالم النّص الأدبي والقوانين التي تحكمه، «فالقارئ في المنهج البنيوي خاضع كلّياً لسلطة النّص ذاته، والقراءة الإبداعية هي القراءة التي تسعى للكف عن المكونات البنيوية، والأنساق الداخلية للنّص الشعري؛ لأنّا تقرؤه من خلال شفرته بناءاً على معطيات سياقه الفنّي؛ أي أنّها قراءة تسعى إلى كشف ما هو باطن في النّص، مؤكدة تناسق بنية النّص الشعري وفق

---

1 عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس الجزائر، 1986، ص81.

* هناك نقاد يترجمون المصطلح بـ: التشريحية (عبد الله الغذامي)، وبالتقويضية (سعد البازعي، ميجان الرويلي).

منطق وقوانيـــن لغوية صارمة لا تقبل التعديل أو التغييـــر، ولا تتأثر بأيِّ شيء خارجها»[1].

تنطلق البنيوية من النّص معتبرة أنه يكشف عن بنية محددة وعن نسق معين أو مجموعة أنساق وأنظمة محددة ما على القارئ (الناقد) إلا الكشف عن هذه الأنساق؛ هو محكوم إليها فلا يحق له أن يضيف إليها شيئا من عنده بل يحفظ بنية النص. «والقراءة الصحيحة هي التي تقدر– حسب المنظور البنيوي – التوصُّل إلى أسرار النّص الداخلية والبنيوية»[2].

فالنّص الشعري في المنهج البنيوي هو الذي يوجه عملية القراءة من خلال شفراتـــه، التي لا تخرج عن قوانين النّص، وتسعى للغوص في بنياته وصولاً إلى المعنى الباطني والرؤى الجوهرية له.

إنّ هذه النظرة المبجّلة للنّص في النّقد البنيوي هي التي ستقود – لاحقاً- إلى الاهتمام بالقراءة وعلاقتها بالكتابة؛ « كما ظهر ذلك عند بارط في حديثه عن القارئ المفترض مثلاً»[3]؛ فهنا يظهر تقاطع بين المنهج البنيوي ونظرية جمالية التلقي، حول أنماط القرّاء*، مما يبرهن على أنّ نظرية جمالية التلقي لم تنشأ من عدم، بل هي خلاصة تراكم نقدي سابق.

ومع امتداد السيميولوجيا الحديثة طوّرت البنيوية منهجا في القراءة السيميولوجية ينطلق من النّص كونه يحمل شفرات تحتاج إلى الفك اعتمادا على الثنائية السوسيرية المعروفة (الدّال Signifier الذي يكون حاضراً كصورة صوتية أو صورة خطية في حالة الكتابـــة، والمدلول Signified والذي هو متصوّر ذهني غائب). فيكون «دور القارئ، والقراءة متمثلا في عملية استحضار أو استدعاء هذا المتصور

---

1 لطيفة إبراهيم بدهم، المرجع السابق، ص 272.

2 فاضل ثامر، اللغة الثانية – في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث – المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994، ص 44.

3 أحمد بوحسن، المرجع السابق، ص 17.

* أهمّ تلك الأنماط: القارىء الأعلى Super reader، القارئ الافتراضي Hypothetical Reader، القارئ التخييلي Fictitious Reader، القارئ الحقيقي Real Reader، القارئ الضمني Implied Reader، القارئ القصدي Intended Reader، القارئ المُؤمثل Idealized Reader، القارئ المثالي Ideal Reader، القارئ المخبر Informed Reader، القارئ المعاصر Contemporary Reader. ينظر: فولفغانغ إيزر، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب في الأدب، تر: حميد لحمداني والجيلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس المغرب، 1987، ص 20 وما بعدها.

الذهني الغائب... ومن تكامل العلاقة الجدلية بين الدال والمدلول وبين علاقات الحضور/ الغياب تتولد المقومات الأدبية أو الشعرية للنص الأدبي، ومن هنا تبرز فاعلية دور القارئ في استحضار الغائب واستكمال النقص»[1].

فالحدث القرائي في المنهج البنيوي يفتح للقارئ دور ملء النقص وتمثّل المعنى شرط التقيد بالدّال، وهو ما يجرد الذات من حريتها وفعاليتها. ولعلّ هذا من بين الأسباب التي أفرزت البينوية التكوينية أو التوليدية « وهي اتجاه ينطلق من منظور الفلسفة الاجتماعية المتأثرة بالفكر الماركسي، تخالف البنيوية الشّكلية الصّورية وخصوصاً فيما يتعلق بالمؤلف وحضوره في الدراسة النّقدية، من منظور الاعتراف بعبقريّته وتفرّده في العمليّة الإبداعية التي تجعله متميّزاً عن الآخرين، فهي لا تذيبه في الجماعة كما دعت إلى ذلك الماركسية ولا تزيحه من الممارسة النقدية كما ذهبت إليه البنيوية الصورية، فهي تنظر إلى العبقرية من منظور علم الجمال الذي يوصّفها ظاهرة من ظواهر تشكيل العمل الأدبي»[2].

فالبنيوية التكوينية ذات مرجعية ماركسية؛ وهي تسعى لقراءة النّص في علاقاته الداخلية؛ وفي الوقت نفسه لا تنفي أهمية دراسة علاقاته الخارجية لأنّها تربطه بالعالم. وقد نظّر لها مفكرون أبرزهم لوسيان غولدمان Lucien Goldmann الذي أخذ عن جورج لوكاتش Georg Lukács. وغولدمان يقرُّ بحضور القارئ ودوره في دينامية التغيير فهو يقول: «إنّ الناس يصنعون البنى التي تمنح التاريخ معنى»[3].

وقد تجلت البنيوية والبنيوية التكوينية في النقد العربي عند ثلة من النقاد منهم محمد برادة ومحمد بنيس ويمنى العيد[4].

أمّا المنهج السيميائي* فتبناه **شارل ساندرس بيرس Charles Sanders Peirce**، وتركّز السيميائيات على حياة العلامات في النّص أي

---

1 أحمد بوحسن، المرجع السَّابق، ص 44.

2 عبد القادر عبو، فلسفة الجمال في فضاء الشّعرية العربية المعاصرة – بحث في آليات تلقي الشّعر الحداثي-، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2007، ص ص 72، 73.

3 ميجان الرويلي وسعد البازعي، المرجع السابق، ص43.

4 ينظر: المرجع نفسه، ص44.

* السيميائية، أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا، أوعلم الإشارة أو علم العلامات، أو علم الأدلة. ينظر: بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثّقافة، عمان، الأردن، ط1، 2001، ص12.

لغة العلامات. لكن هل يمكن للعلامة السيمائية أن تتكون من غير الكلمات؟

وهل يمكن لها أن تحمل دلالة تواصلية إذا لم تتشكل من الكلمات؟ للإجابة على هذه الأسئلة يقول رولان بارث: « سنفهم من كلمة (لغة) أو كلمة (كلام) أو كلمة (خطاب) كل وحدة أو توليف دلالي، سواء أكان لفظيا أم بصريًا: سنعدّ الصورة الفوتغرافية كلاماً بالقدر نفسه الذي نعدّ به مقالاً صحفياً كذلك، بل سيغدو بإمكان الأشياء نفسها أن تصبح كلاماً، إذا دلّت على شيء ما»[1].

نستشف من القول السابق أنّ اللغة عند السيميائيين تتجاوز المعنى التقليدي للمنطوق أو المكتوب لتعمّم على كل ما هو دال.

وبهذا المنطلق أصبحت القراءة النقدية على ضوء السيميائية قراءة إنتاجية تحاول تقريب القراءة من الكتابة، فيصبح القارئ كاتبا، ومنتجا ثانيا للنص، لأن القراءة السيميولوجية تعتبر أن النّص يحمل أسرارا كثيرة تستفز القارئ لفك رموزه انطلاقا من فهم العلاقة الجدلية الموجودة بين الدال، والمدلول، وبين الحاضر والغائب، فتبدأ عملية البحث عن المعنى الغائب انطلاقا من دراسة الرموز التي تجعل الدلالة تنحرف باللغة الاصطلاحية إلى لغة ضمنية عميق.

فالمنهج السيميائي في قراءة النص الأدبي « ينبثق من النّص نفسه ويتموقع فيه بوصفه شكلاً من أشكال التواصل يربط علاقة تفاعل بين النص والقارئ لأن القارئ ينشط على مستوى استنطاق الدّال في النّص ممّـــا يجعله يتفاعل مؤثرا في النص أو متأثّـــراً به»[2].

أمَّا واقع القراءة السيميائية في طابعها المشروط لتأويل الفهم «فهي التي تمنحنا المقدرة على إضاءة المعهود والكشف عنه، وفق جسرٍ يربط الماضي بالحاضر، على ضوء ما يقتضيها الراهن»[3].

إذاً فالقراءة السيميائية أولت عناية خاصة بالقارئ، حيث جعلت منه مستنطقاً للنص متأثّراً به، باحثاً عن الدلالة في ثناياه.

تعدُّ الأسلوبية من المناهج الوصفية التحليلية التي تدرس الظاهرة الأدبيّة ومميّزاتها اللغويّة ومقوّماتها الجماليّة القابلة للوصف والتحليل

---

3 رولان بارث، الأسطورة اليوم، مجلة بيت الحكمة، ع7، السنة الثانية، الدار البيضاء، فبراير1988، ص 52.
2 السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، الجزائر 7-8 نوفمبر2000، ص 146.
3 سامية حبيب، دلالات في الدراما الشعرية العربية، مجلة علامات، ج35 مج9، مارس 2000، ص 312.

من زاوية نظر لسانيّة. فالبعض يعتبرها أحد أفنان اللسانيات[1]، فهي الابن الشرعي لعلم البلاغة كونها تراعي الأسلوب في منهجها القرائي من حيث طريقةُ الكتابة أو الإنشاء أو طريقةُ اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصْدَ الإيضاح والتأثير. فهي «امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت. هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت أيضاً»[2].

وقد برزت إلى الوجود مع فكر شارل بالي Charles Bally، وانتقلت إلى الفكر العربي عن طريق عدّة مُنظّرين أبرزهم أب الأسلوبية العربية التونسي عبد السلام المسدي من خلال كتابه "الأسلوبية والأسلوب*" حيث بسط فيه مفاهيم الأسلوبية وماهيتها. الأسلوبيّة شأنها في ذلك شأن اللسانيات التطبيقيّة.

وإذا ما أردت تبيُّن غاية القراءة في الفكر الأسلوبي، فهي تسعى إلى «الكشف عن العناصر المميّزة التي بها يستطيع المؤلف الباث، مراقبة حرّية الإدراك، لدى القارئ المتقبِّل، والتي بها يستطيع أيضاً أن يفرض على المتقبّل وجهة نظره في الفهم والإدراك»[3].

فالقراءة - كمظهر للأسلوبية - تراعي القارئ، من خلال سعيها إلى خلق تأثيري في وعيه لبلوغ درجة الفهم والإدراك. فهي وإن كانت تقوم على أسس بلاغية نصية إلا أنها لا تغيِّب المتلقي كلّية بل تراعيه أثناء عملية الإبداع مستندةً إلى الوظيفة التأثيرية. يُضاف لذلك أنّ آليّات القراءة الأسلوبية تستند لعلائق الحضور والغياب، والانزياح.
أمّا الدراسة التفكيكية فإنها خلاصة فكر الفرنسي "جاك دريدا J. Derrida" الذي نظّر لها ابتداء من أواخر الستينيات في عدد من الكتب، منها: "الكتابة والاختلاف"، "الصوت والظاهرة"، "في علم الكتابة".

وجاءت كرد فعل على الفكر البنيوي الذي أخضع القارئ لسلطة النّص، فقد «اعترضت التفكيكية على سلطة النّص المطلقة ونفت

---

1 ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط3، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1982، ص24.
2 عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، المرجع السابق، ص 52.
* يرى البعض – الفرنسي جورج لويس لوكلير *Louis Leclerc-Georges* - أنّ: «الأسلوب هو الإنسان عينه لذلك تعذر انتزاعه أو تحويله أو سلخه». يُنظر: عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، ص 67.
3 عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، ص 49.

إمكانية وجود قراءة صحيحة أو واحدة للنّص وأطلقت العنان لمبدأ "القراءات المتعددة" التي بدورها تظل نسبية أو غير يقينية وقابلة للتفكيك لاحقا »[1]. وبذلك يصبح القارئ المحور الأساسي للعملية الإبداعية، والمنتج الحقيقي للنّص الشعري وتصير الدلالة فعلاً قرائياً[2].

وقد قامت التفكيكية على جملة من الأسس النظرية، أهمّها:

- "موت المؤلف"* La mort de l'auteur الذي قال به رولان بارت. وقد انساق العديد من النّقاد العرب وراء هذا الاتجاه غير أنّ هناك جيل من الرّواد تفطّن لما تبطّنه مثل هذه المفاهيم من خلفيات فكرية

- "القراءة والكتابة" وفيها جعل الاهتمام منصباً على القارئ. إذ أصبح «الفضاء الذي ترتسم فيه كل الاقتباسات التي تتألف منها الكتابة دون أن يضيع أيّ منها ويلحقه التلف...»[3] وقد شكّل هذا الأساس النظري إرهاصا بظهور عدة دراسات حديثة تدخل ضمن ما يعرف بـــ" نظرية التلقي" والتي نشأت فيها حركة نشطة سميت بـــ" جمالية التلقي" "Esthétique de la réception" وهذه الأخيرة سنعود إليها بنوع من التفصيل بعد أن أنهي هذه الوقفة مع أبرز المناهج، النقدية ووضعها في الدراسات العربية ثم الجزائرية.

- رفض القول بأحادية المعنى الواحد، وإعلان فكرة " تشتيت المعنى" وقد نشأ هذا الأساس من ملاحظة جاك دريدا للفكر الفلسفي الأوربي حيث وجده قائما على ظاهرة الـــ" Logocentrisme "** والتي تخلص إلى القول بالدلالة الأحادية الواحدة للأشياء والتي منها قراءة النص. فألغت التفكيكية فكرة "المعنى الواحد" monosemie وقالت بـــ "التعددية المعنوية" Polysemie والتي أشاعت خلالها مصطلح " الانتشار" Dissemination.

---

1 فاضل ثامر، المرجع السابق، ص 46.

2 ينظر: لطيفة إبراهيم بدهم، المرجع السابق، ص 278.

* يبدو هذا الموقف متأثرّ بمقولة النتشوية الفاسدة "مات الإله"، ينظر: التبيين، مجلة ثقافية محكمة منوعة تصدر عن الجاحظية، ع 30، 2008، مطبعة الجاحظية، الجزائر، ص 30.

3 رولان بارت: درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بن عبد العالي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، 1986، ص87.

** وضعت عدّة معادلات عربية لهذا المصطلح، منها:" اللوغو-مركزية"، " التمركز المنطقي"، " العقلنة المعرفية المركزية".. .

- كما قالت بأنّ اللغة دائمة الحركة، هذا ما يجعل النص لا يقف عند معنى واحد ثابت.

- وأشارت إلى " التَّناسُخ النّصّي" إذ أنّه «لا وجود لنص مستقل استقلالا كاملا، وكلّ نص هو - في حقيقته - محتلّ احتلالا دائما لا مفرّ منه؛ مادام يتحرّك ضمن معطى لغوي موروث وسابق لوجوده أصلاً،... فكلّ كتابة.. هي تأسيس على أنقاض كتابة أخرى بشكل أو بآخر»[1]. فلا ينشأ فعل أدبي من عدم بل هناك تقاطعات بين المبدعين في عملية الإبداع.

فالتفكيكية وإن كانت تنطلق من النّص هي الأخرى؛ إلا أنّها تجعله يحتمل عدّة قراءات، كما أنّها رفعت منزلة القارئ ليبلغ مكانة لم يحفل بها في المناهج النصيّة السابقة. فكأنّها كانت إرهاصاً أولياً لنظرية مدرسة كونستانس.

خلاصة:

مما سبق يمكننا الخروج بالنتائج التالية:

أن الحدث القرائي مرّ في رحلته بعدة أطوار أبرزها القراءة الألسنية (الفكر ما بعد البنيوي) وترجمتها كل من القراءة السيميائية والبنيوية، فالأسلوبية ثم التفكيكية. ليصل أخيرا إلى نظرية جمالية التلقي.

لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن كل هذه النظريات القرائية كانت من حيث لا تدري إرهاصا أوليا لهذه النظرية القرائية التي أعادت للمتلقي مكانته التي افتقدها طيلة حقبة زمنية عير يسيرة.

أن نقادنا العرب استطاعوا تمثل هذه النظريات – الغربية المنشأ – كما أنهم لم يقعوا في فخ مغالطاتها الفكرية، فسعوا إلى مراجعتها وفقما يتماشى مع الخصوصيات الثقافية للبيئة النقدية العربية ومن هؤلاء: فاضل ثامر، عبد المالك مرتاض وغيرهم....

أما عن آفاق هذه الدراسة فهي تسعى لوضع حجر أساس لدراسات لاحقة تتناول قضايا نقدية معاصرة كالسعي لبناء نظرية قرائية عربية خالصة تتماشى والخصوصيات الثقافية العربية.

---

1 يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر -من اللانسونية إلى الألسنية-، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2002، ص 158.

المصادر والمراجع:

ابن منظور، لسان العرب، ج13، نسّقه وعلق ووضع فهارسه، علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، سنة1988.

أحمد بوحسن، نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث، دراسة ضمن "نظرية التلقي – إشكالات وتطبيقات –"، تأليف مجموعة من الباحثين، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24، 1993.

بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ط1، 2001، ص12.

التبيين، مجلة ثقافية محكمة منوعة تصدر عن الجاحظية، مطبعة الجاحظية، الجزائر ع 30، 2008.

رولان بارت: درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بن عبد العالي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، 1986.

رولان بارث، الأسطورة اليوم، مجلة بيت الحكمة، ع7، السنة الثانية، الدار البيضاء، فبراير1988.

رولان بارث، الدرجة صفر للكتابة، ترجمة محمد برادة، الترجمة المغربية للناشرين المتّحدين، المغرب، ط3، 1985.

سامية حبيب، دلالات في الدراما الشعرية العربية، مجلة علامات، ج35 مج9، مارس 2000.

السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، الجزائر 7-8 نوفمبر2000.

عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط3، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1982.

عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر المؤسسة الوطنيـــة للكتـــاب، تونس الجزائـــر، 1986.

عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1984.

عبد القادر عبو، فلسفة الجمال في فضاء الشّعرية العربية المعاصرة – بحث في آليات تلقي الشّعر الحداثي-، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2007.

عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير - قراءة نقدية لنموذج لساني -، النادي الأدبي الثقافي، جدة. السعودية، ط1.

عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة، قصيدة القراءة تحليل مركب لقصيدة اشجان يمانية، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1991.

فاضل ثامر، اللغة الثانية – في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث –المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994.

فولفغانغ إيزر، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب في الأدب، تر: حميد لحمداني والجيلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس المغرب، 1987.

لطيفة إبراهيم بدهم، اتجاهات تلقي الشعر في النقد الأدبي المعاصر، مجلة علامات ج 35 مج 9 مارس 2000.

مولاي علي بوخاتم، مصطلحات النقد العربي السيماءوي الإشكالية والأصول والامتداد 2004/2003 - دراسة - منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.

يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر -من اللانسونية إلى الألسنية-، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2002.